نمطية الخطاب الحواري في تهذيب السلوك

الباحث–محمد لفتة ساجت أ.م.د– قصي جواد الغراوي

جامعة واسط – كلية التربية للعلوم الانسانية

الملخص

يقوم هذا البحث بدراسة المنهج الحواري في تهذيب السلوك واثره على سلوك الفرد والمجتمع من خلال محاورة النبي موسى –عليه السلام– وفرعون وبيان دلالة الحوار بفتح آفاق عميقة بين طرفي الحوار، والعمل على معرفة الدلالة السياقية التي هيأت الجو التعبيري للحوار في اختيار المفردة في مخاطبة الطرف الاخر من الحوار دون غيرها من المفردات القرآنية الأخرى

فالبحث يهدف الى بيان المعنى وتحديده توجيهاً دقيقاً، وربط تلك المفردات في النصوص القرآنية بسياقها المقالي والمقامي واثرها؛ من اجل الوصول إلى معناها المراد والذي هيأ لها سياقها الذي وردت عليه في المتن القرآني.

مُقدِّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على اشرف الخلق اجمعين، أبي الزهراء محمد وآله الطيبين الطاهرين.

أمّا بعد

فهذا بحثٌ يبحث عن معرفة نمطية الخطاب الحواري في تهذيب السلوك واثرها على الفرد والمجتمع من خلال القصص القرآنية والدور الذي يقوم به الحوار في تهذيب النفس ، وقد خصص القرآن الكريم قسماً مهماً من أبحاثه الأخلاقية والسلوكية ضمن دراساته الخاصة لسلوكيات الأقوام السالفة وتاريخ المجتمعات البشرية الماضية وما ترجمه الأوائل على المستوى العملي من أخلاق وقيم وفضائل كانت تتحرك في تلك المجتمعات الإنسانية، ومن ثم الكشف عن عواقب تلك السلوكيات وعرض نتائج الأعمال والممارسات الأخلاقية، وبحث القران الكريم

المسائل الأخلاقية في دائرة التجربة العينية والخارجية في إطار ممارسة الافراد البشرية، لتتضح النتائج المترتبة عليها لكلّ قارئ ومستمع .

فالبحث هذا لا يقوم على دراسة ومعرفة كل النصوص القرآنية التي ذكرت دعوة الانبياء في تهذيب سلوك المجتمع بل ينفرد بدعوة النبي موسى وهارون _عليهم السلام _ لدعم فكرة موضوع البحث من كون القصص القرآنية لها الأثر الواضح باختيار الالفاظ والمناهج في تربية المجتمع، فكانت مسيرة البحث بتتبع المفردات في النص القرآني من خلال تجلّى الفضائل والرذائل الأخلاقية في صورة تجسيد عيني لها في حركة الإنسان والواقع الاجتماعي على مستوى الحس والتجربة.

وقد قسمتُ البحث الى مطلبين: فكان المطلب الأول: المستوى النظري ويتضمن بيان السلوك لغة واصطلاحاً ، والبعد التأصيلي لمفهوم تهذيب السلوك أما المطلب الثاني: فكان المستوى التطبيقي من خلال حوار الادلة الفكرية التي انتهجها المحاور مع الطرف الاخر من الحوار.

أما الخاتمة فقد تضمنت أهم نتائج البحث وختاماً لا أدعي أني قد أعطيت هذا الموضوع حقه من الدراسة، آملاً أن يكون البحث واقعاً مورد الرضا، نسأل

المطلب الاول : المستوى النظري :

اولاً: السلوك لغة واصطلاحاً:

السلوك لغة : جاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس : " السين واللام والكاف أصلٌ واحد يدل على نفوذ شيء في شيء ، يقال سلكت الطريق أسلُكته . وسلكت الشيء في الشيء " [١]

ويقال أن : " سلك: السَّلْكُ، والجميع السُّلوكُ: الخيوط التي يخاط بها الثياب. الواحدة: سُلْكة ، والمَسْلَكُ: الطريق، سَلَكْته سلوكاً. والسَّلْكُ والإِسلاكُ واحد. والسَّلْك: إدخال الشيء في تَسْلُكُه فيه، كالطاعن يَسْلُكُ الرمح فيه إذا طعنه تلقاء وجهه على سجيحته" . [٢]

---

[١] مقاييس اللغة : بن فارس : ٣/ ٩٧. مادة (سلك)

[٢] العين : الخليل بن احمد الفراهيدي : ٢/ ٢٦٧.

يُعرف الزمخشري السلوك بانه : " سلك : طريق مسلوك ، وما سُلك طريق اقوم منه . ونظم الدُر في السلك وفي السلوك " .[١]

وعرف: السلوك : مصدر سَلَكَ طريقاً، وسَلَكَ المكان يسلكهُ سَلكاً وسُلوُكاُ وسلكه غيره وفيه واسلكه إياه وفيه وعليه " [٢] ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى:﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [٣] .

وذكر الفيومي اصل السلوك فقال : " سَلَكْتُ : الطَّرِيقَ (سُلُوكاً) مِنْ بَابِ قَعَدَ ذَهَبْتُ فِيهِ ويَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ وبِالْبَاءِ أَيْضاً فَيُقَالُ (سَلَكْتُ) زَيْداً الطَّرِيقَ و(سَلَكْتُ) بِهِ الطَّرِيقَ و(أَسْلَكْتُ) فِى اللُّزُومِ بِالْأَلِفِ لُغَةٌ نَادِرَةٌ فَيَتَعَدَّى بِهَا أَيْضاً و (سَلَكْتُ) الشيء في الشيء أَنْفَذْتُهُ " . [٤]

وعرف : السلوك النفاذ في الطريق ، يُقال سَلَكتُ الطريق وسلكت كذا في طَريقه ،[٥] كما في قوله تعالى : ﴿ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً﴾ [٦] وفي قوله تعالى : ﴿يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾[٧]

السلوك اصطلاحاً:

هو " الذي مَشَى على المَقَامات بِحَاله لا بعلمه وتصوره ، فكان العلم الحاصل له عَيْناً يأبى من ورود الشبهة المُفصة له " .[٨]

هو عبارة عن تهذيب الأخلاق ليستعد للوصول ، أي السلوك أن يطهرَ العبدُ نفسه عن الاخلاق الذميمة مثل حُب الدنيا والعجب والكذب والغيبة والحرص والظلم ونحوها من المعاصي ، ويتصف بالأخلاق الحميدة " . [٩]

---

[١] اساس البلاغة: الزمخشري (سلك) ١/ ٤٧٠.

[٢] لسان العرب : ابن منظور مادة (سلك) : ١٠/ ٤٤٢.

[٣] الشعراء / ٢٠٠.

[٤] المصباح المنير : الفيومي : ١٤٩

[٥] مفردات الفاظ القرآن : الراغب الاصفهاني : ٢٦٨.

[٦] نوح / ٢٠ .

[٧] الجن / ٢٧.

[٨] التعريفات، علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني(ت٨١٦هـ_١٤١٣م)،تحقيق محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة:١٠٠.

[٩] كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم :التهاوني : ٩٧٠.

ثانياً : البعد التأصيلي لتهذيب السلوك:

ان النظام إلهي المتكامل الذي أراد الله _سبحانه وتعالى_ من خلاله الوصول بالإنسان إلى تكامله الفردي والاجتماعي من خلال الالتزام بتعاليمه المقدسة ، فلقد أرسل تعالى جميع الأنبياء والمرسلين _عليهم السلام _ والكتب السماوية من أجل الإنسان وتحقيق سعادته وتكامله، ولم يكن التكريم والتقويم مقتصراً على الصورة المادية والبدنية للإنسان فقط، بل ارتقى الأمر إلى أعظم من ذلك بكثير ، فكانت المعاني السامية والمُثُل الراقية هي محور التأثير على النفس الإنسانية وتهذيبها والوصول بها إلى ذلك التكامل الذي أراده الله تعالى من خلال تشريعاته، ولذا خاطب تعالى أكرم مخلوق عنده نبينا محمد _صلى الله عليه واله وسلم _ بقوله :﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [١] فأراد الله تعالى من خلال هذه الآية المباركة أن يؤكد على عظمة هذه الصفة التي يجب على الإنسان أن يصف بها. [٢]

عن كتاب أسس على مبادئ، فان القصص القرآنية نظام إنساني متكامل لهداية البشرية نحو صلاحها وسعادتها ودستور إلهي لتنظيم حياة الفرد والمجتمع وهدايتهم نحو الصلاح، فالله تعالى أراد أن يبين للإنسان سبيل هدايته من خلال نظام متكامل على المستويين المادي والمعنوي، أي من خلال نظام يشمل الروح والبدن جميعا دون إيثار أحدهما على الآخر وهذه الغاية قائمة على أساس تكريم الإنسان ومقامه عند خالقه فضلا عما يؤمن به ويعتقده، يتبين لنا أن الإنسان هو الذي يقوم باختيار طريقه الذي يريد أن يسلكُه بعد أن تم بيان النظام الأكمل من خلال التشريعات الإلهية المقدسة. [٣]

وهنا نستطيع القول إن الإنسان هو محور الأمر في صلاح المجتمع وفساده، ويجب علينا عند وضع أي نظام أو دستور أو تشريع أن يكون محور ذلك هو الإنسان وتكريمه والمحافظة على حقوقه وواجباته، فاذا أمعنا النظر في كل الأنظمة والتشريعات التي وضعها الإنسان لرأينا العجز في زاوية من زواياه أو في أغلبها؛ لأن المشرع لذلك هو الإنسان ذو التفكير المحدود، وذو النزوات والشهوات والإرادات المختلفة ، إضافة إلى ما يطرأ عليه من التغيير والتبديل والتأثير

---

[١] القلم / ٤.

[٢] القرآن الكريم وآثاره في تربية الإنسان والمجتمع دراسة موجزة في سورة الإسراء، عماد الكاظمي منشورات معالم الفكر، الكاظمية المقدسة، ط١، (١٤٣٦هـ. ٢٠١٥م) :٥.

[٣] المصدر نفسه :١١.

والتأثر، بينما النظام الإلهي خلاف ذلك تماما، ويكفي أنه من الخالق الحكيم العارف بحاجة مخلوقاته وما يصلحهم وينفعهم . [١]

ومن اهم اساليب التربية الناجعة _ في مجال تهذيب النفوس _ هو عرض القصص القرآنية نماذج بلغوا الغاية في السمو الآيماني والاخلاقي في الطهارة والنزاهة، وحض الآخرين على التأسي والاقتداء بهم في الحياة [٢]، في الوقت نفسه ذكر الانسان الذي يبطره الثراء ويستخفه الغنى ويزدهيه المال يتعامى عن رؤية مساوئه وعيوبه كما جاء في قوله تعالى : ﴿**وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ**﴾ [٣] ويذهل عن تهذيب نفسه وتقويم سلوكه ، ويفضي به الامر الى الشقاء والخسران . [٤]

في حينها نذكر حديث مروي عن الامام الباقر -عليه السلام- يضيء لنا معالم الطريق في كيفية السلوك مع الله تعالى ومع الناس، قال -عليه السلام-لابنه جعفر الصادق -عليه السلام-" إنّ الله خبأ ثلاثة في ثلاثة أشياء: خبأ رضاه في طاعته، فلا تحقرن من الطاعة شيئاً، فلعل رضاه فيه؛ وخبأ سخطه في معصيته، فلا تحقرنّ من المعصية شيئاً، فلعل سخطه فيه؛ وخبأ أولياءه في خلقه، فلا تحقرنّ أحداً ، فلعله ذلك الولي " [٥]

---

[١] ينظر : المصدر نفسه:١٧.

[٢] ينظر :منية الطالبين في تفسير القرآن المبين : الشيخ جعفر السبحاني : ٢٨/ ٨٠.

[٣] الرعد / ٢٦.

[٤] ينظر :منية الطالبين في تفسير القرآن المبين : الشيخ جعفر السبحاني : ١٨٤/٢٠.

[٥] مجمع الامثال، لابي الفضل احمد بن محمد بن احمد بن ابراهيم النيسابوري الميداني (ت ٥١٨ه) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السنة المحمدية ، ملتقى اهل الاثير ، مصر القاهرة ،ط١، (١٣٧٤ه_ ١٩٥٥م) : ٤٥٨/٢.

لمطلب الثاني :المستوى التطبيقي

حوار الادلة الفكرية :

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ۞ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى۞ فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى۞ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى۞ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى۞ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى۞ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى۞ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى۞ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى۞ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى۞ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى۞ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى ﴾ [١]

جاء الخطاب القرآني بصيغة الأمر الموجه للمحاورين وهم موسى -عليه السلام- واخيه هارون مع الطرف الآخر من الحوار وهو فرعون فقد جاء الامر السماوي بالذهاب الى الطرف الاخر من الحوار وتبليغه بالرسالة السماوية كما جاء في قوله تعالى:﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [٢] في حين نرى دلالة حرف الباء في عبارة ﴿بِآيَاتِي﴾" للمصاحبة لقصد تطمين المحاور بأنّه سيكون مصاحبا لآيات اللّه، أي الدلائل التي تدلّ على صدقه لدى فرعون، ومعنى ﴿ وَلَا تَنِيَا﴾ لا تضعفا أي لا تن أنت وأبلغ هارون أن لا يني، فصيغة النهي مستعملة في حقيقتها ومجازها " [٣] وأن يذكرا المحاورين صفات الله تعالى الدالة على أنه وحده الإله الذى يعبد دون سواه، وذكر صفات الكمال والجلال [٤]، والأنسب للسياق في الخطاب السابق أن يكون المراد بالذكر الدعوة إلى الإيمان به تعالى وحده لا ذكره بمعنى التوجه إليه قلبا أو لسانا كما قيل . [٥]

وفي سياق النص القرآني المبارك تقدم الأمر على السبب للدلالة على سرعة تنفيذ الطلب، وظهور هذا الخطاب لله عز وجل، مع المحاورين -عليه السلام-، في موقفين : أولاهما : حين أمرهم الله سبحانه وتعالى بالذهاب إلى فرعون لهدايته ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ حيث قدم فعل الأمر﴿اذْهَبَا ﴾على السبب ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾، فقد كان من الممكن أن يتقدم السبب على الفعل: (إن

---

[١] طه /٤٧-٥٦.

[٢] ينظر: التعبير القرآني ، د. فاضل صالح السامرائي(ت٢٠٢١م)، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان_ الاردن ،ط٥، ٢٢٢-٢٢٣.

[٣] التحرير والتنوير: طاهر بن عاشور:١٦/١٢٤.

[٤] ينظر: زهرة التفاسير: أبو زهرة محمد: ٩/٤٧٢٨ .

[٥] ينظر: الميزان في تفسير القرآن: الطباطبائي:١٤/ ١٥٤

فرعون قد طغى فاذهبا إليه) ولكن أراد الله سبحانه وتعالى من المحاورين أن يسرعا لتنفيذ الطلب الذي ما كان يجرؤ على فعله من قبل، وفي هذا دليل على ما طرأ على شخصية المحاورين من تحول، فقد أضحى رسولا يسير بهدي الله، ورعايته وحفظه، يستطيع أن يقدم على أفعال لم يكن يستطيعها، وهكذا يتحول من هجرة فرعون وطغيانه وهو الطرف الاخر إلى هجوم لا يعرف الفر، وكل هذه الدلالات ما كانت لتبرز لو تقدمت جملة ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾ على ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ لأن طغيان الطرف الاخر من الحوار وهو فرعون وجبروته أمرا معروفا عند المتلقي، لا يثيره ولا يخيفه، أما الذهاب إليه فهو الذي سيخلق الصراع في ذات المحاور ليجعله يوقن بالتغيير الطارئ على شخصه . [١]

فقد امر كلاً من المحاورين موسى وهارون في الذهاب إلى فرعون لدعوته بالقول اللين من خلال النص القرآني: ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ فصفة القول هنا هو " اللين لا يثير العزة بالإثم، ولا يهيج الكبرياء الزائف الذي يعيش به الطغاة، ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان، اذهبا إليه غير يائسين من هدايته، راجيين أن يتذكر ويخشى" [٢] ويرى الزمخشري بأن" الذكر تبليغ الرسالة، فإن الذكر يقع على سائر العبادات، وتبليغ الرسالة من أجلها وأعظمها، فكان جديرا بأن يطلق عليه اسم الذكر" [٣] وذهب السيد محمد حسين فضل الله الى بيان معنى الترجّي قائلا : " كان بلحاظ طبيعة الأسلوب لا بلحاظ خصوصية الشخص والموقع" [٤] ومن دلالات القول الليّن في الكلام الدال على معاني الترغيب والعرض واستدعاء الامتثال قد يجعل اطمئنان المخاطب لدعوة المحاور ويظهر أنّ له من سداد الرأي ما يتقبّل به الحق ويميّز به بين الحق والباطل مع تجنب أن يشتمل الكلام على تسفيه رأي المخاطب أو تجهيله [٥] في الوقت نفسه أن النص القصصي قد أضفى على الموقف ما يُحسس شخصية المحاورين بمناخ الخوف، من نحو التكرار في دلالة سياق النص القرآني بأن فرعون قد طغى بل إن إشارة النص إلى مخاطبة فرعون باللغة اللينة يحسّس موسى -عليه السلام- واخيه هارون بأنه حيال مهمة محفوفة بالأخطار، حيث سيواجهها طاغية من الصعب أن يخضع لليونة القول [٦]

---

[١] ينظر: لغة الحوار: فوز سهيل كامل: ٢٤٨.

[٢] في ظلال القرآن: سيد قطب :٢٣٣٦/٤ .

[٣] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: الزمخشري:٦٥/٣ .

[٤] تفسير من وحي القرآن : السيد محمد حسين فضل الله : ١١٥/١٥.

[٥] ينظر : التحرير والتنوير: طاهر بن عاشور:١٦/ ١٢٤.

[٦] ينظر : قصص القرآن الكريم دلالياً وجمالياً: د. محمود البستاني: ٢/ ٣٢.

وإن اللطف في دعوة المحاورين للطرف الاخر تقتضى الرفق في القول؛ لأنه نشأ وترعرع احدى المحاورين وهو موسى -عليه السلام- صغيرا ورعاه الطرف الاخر وهو فرعون ، وكانت له محبة فكان له مثل حق الأبوة، وقـــد عتب فرعون على موسى -عليه السلام- حتى هذه الدعوة الرقيقة، إذ قـــــال : ﴿لَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَ لَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ (١) (٢) فصيغة الترجي هنا " المستفاد من (لعلّ) لعلّه ينظر نظر المتبصّر فيعرف الحق أو يخشى حلول العقاب به فيطيع عن خشية لا عن تبصر " (٣) ويرى الطبطبائي في تفسيره بأن الخشية " من مقدمات القبول والإيمان فمآل المعنى لعله يؤمن أو يقرب من ذلك فيجيبكم إلى بعض ما تسألانه " . (٤)

على أية حال فأن دلالة النص القرآني ﴿رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى﴾ تشير الى غالب التفكير في العواقب والموانع يكون عن طريق العزم على الفعل، والأخذ في التهيّؤ له، فذكر الطغيان بعد الفرط إشارة إلى أنّهما لا يطيقان ذلك، فهو انتقال من الأشدّ إلى الأضعف لأن نخاف يؤول إلى معنى النفي، وفي النفي يذكر الأضعف بعد الأقوى بعكس الإثبات ما لم يوجد ما يقتضي عكس ذلك. وحذف متعلّق يَطْغى فيحتمل أن حذفه لـــــدلالة نظيره عليه، وأوثر بالحذف لـــــرعاية الفواصل، والـــــتقدير: (أو أن يطغى علينا)(٥) فكانت قوة الطرف الاخر " وسطوته وجبروته في وعيهما، حيث عاشاه في الواقع الظالم القاسي الذي كان يمثل الظلم كأبشع ما يكون، والطغيان كأقسى ما يكون، ولذلك فقد كانا حذرين ألا يستمع إليهما ولا يستقبلهما، لأنهما لا يملكان أمامه أي موقع اجتماعي، يسمح لهما بمقابلته والجلوس إليه، فكيف يتمكنان إذا من مواجهته بالموعظة والنصح و الدعوة إلى الإيمان، وما يستلزمانه من التنازل عن امتيازاته " (٦) .

في حينها خاطب الله سبحانه وتعالى المحاورين في الأمر فقال _عز وجل_ : ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ وهذا دليل على وجود الرعاية الالهية للمحاورين " أي لا تخافا من فرطه وطغيانه إنني حاضر معكما أسمع ما يقال وأرى ما يفعل فأنصركما ولا أخذلكما فهو تأمين بوعد النصرة، فقوله: ﴿لا تَخافا﴾ تأمين، ودلالة قوله تعالى : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَ

---

(١) ينظر : زهرة التفاسير: أبو زهرة محمد: ٩/٤٧٣٠.

(٢) الشعراء/ ١٨.

(٣) التحرير والتنوير: طاهر بن عاشور:١٦/١٢٤

(٤) الميزان في تفسير القرآن: الطباطبائي:١٤/ ١٥٤.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير: طاهر بن عاشور:١٦/ ١٢٥.

(٦) تفسير من وحي القرآن : السيد محمد حسين فضل الله : ١٥/ ١١٥.

﴿أَرى﴾ تعليل للتأمين بالحضور والسمع والرؤية، وهو الدليل على أن الجملة كناية عن المراقبة والنصرة وإلا فنفس الحضور والعلم يعم جميع الأشياء والأحوال " [١]

ومن الملحوظ ان جملة "﴿ وأَسْمَعُ وَ أَرى﴾ حالان من ضمير المتكلم، أي أنا حافظكما من كل ما تخافانه، وأنا أعلم الأقوال والأعمال فلا أدع عملا أو قولا تخافانه " . [٢]

ومن ثم وجه الخطاب القرآني المحاورين لإكمال تبليغهم في بيان الرسالة والنبوة قال تعالى: ﴿فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ﴾ وهنا جدد أمر المحاورين بالذهاب إلى فرعون بعد تأمينهما ووعدهما بالحفظ والنصر وبين تمام ما يكلفان به من الرسالة وهو أن يدعو فرعون إلى الإيمان وإلى رفع اليد عن تعذيب بني إسرائيل وإرسالهم معهما فكلما تحول حال في المحاورة جدد الأمر حسب ما يناسبه . [٣]

في الوقت نفسه توحي دلالة النص المبارك في قوله:﴿ فَأْتِياهُ﴾ غير البعد الدلالي اذ خوطبا بقوله :(اذهبا إليه) فأن إتيان الشيء أقرب مساساً به من الذهاب إليه ولم يكن إتيان فرعون وهو ملك مصر وإله القبط بذاك السهل والملاحظ من سؤال فرعون والملاحظ الميسور، وقيل: ﴿فَقُولا﴾ ولم يقل: (فقولا له) كأنه لا يعتني به، وقيل: ﴿إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ﴾ و﴿ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ فقرع سمعه مرتين بأن له ربا وهو الذي كان يدعي الربوبية والالوهية . [٤]

ومن ثم بين المحاوران الغاية التي أرسلا من اجلها ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ في ما "يتعلق بالأمر والنهى الذي يتعلق بسلطانه وقوته وبطشه فهو يمسّ صميم جبروته بالتخلّي عن بني اسرائيل حكمهم وأخرجهم عن طاعتك وجبروتك وطغيانك" [٥] ويتضح من خلال سياق النص القرآني في قوله تعالى: "﴿ قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ فيها بيان لجملة ﴿إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ﴾ فكانت الأولى إجمالاً والثانية بيانا، احتوت على معنى التعليل لتحقيق كونهما مرسلين من اللّه بما يظهره اللّه على يد أحدهما من دلائل الصدق، وكلا الغرضين يوجب فصل الآية عن التي قبلها " [٦] " وأدخل فاء التفريع على طلب إطلاق بني إسرائيل لأنّه جعل طلب إطلاقهم كالمستقرّ المعلوم عند فرعون؛ إما لأنّه سبقت إشاعة عزمهما على الحضور عند فرعون لذلك المطلب،

---

[١] الميزان في تفسير القرآن: الطباطبائي :١٤/١٥٦.

[٢] التحرير والتنوير: طاهر بن عاشور:١٦/ ١٢٦

[٣] ينظر : الميزان في تفسير القرآن: الطباطبائي:١٤/ ١٥٧.

[٤] ينظر: الميزان في تفسير القرآن: الطباطبائي:١٤/ ١٥٨.

[٥] زهرة التفاسير: ابو زهرة محمد: ٩/٤٧٣٢.

[٦] التحرير والتنوير: طاهر بن عاشور:١٦/١٢٧.

وإما لأنه جعله لأهميته كالمقرّر، وتفريع ذلك على كونهما مرسلين من اللّه ظاهر، لأنّ المرسل من اللّه تجب طاعته، وخصّا الربّ بالإضافة إلى ضمير فرعون قصدا لأقصى الدعوة، لأنّ كون اللّه ربّهما " [١] ثم اشارت الآية الى ترغيبه في اتباعهما على ألطف وجه بقوله: ﴿**وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى**﴾ المستتبع لسلامة الدارين من اللّه تعالى والملائكة وغيرهم من المسلمين بتصديق آيات اللّه تعالى الهادية إلى الحق . [٢]

في الوقت نفسه يتصاعد الموقف مع الطرف الآخر وهو فرعون في لهجة تهديدية قوية ضاغطة لا عهد له بها من قبل في ما كان يستمع إليه من حديث الناس معه ﴿**إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى**﴾ ويشير له أن مسألة التمرد والإعراض عن السير في الاتجاه الإيجابي للإيمان، بعد فقدانه العذر المبرر لذلك فهي ليست مسألة هامشية في حياة الإنسان المتمرد ليأخذ حريته فيها من دون أن يواجه أية نتائج سلبية؛ بل هي مسألة خطرة يواجه فيها خزي الدنيا وعذاب الآخرة . [٣]

وقد يتبادر إلى الذهن أن هذه الطريقة التي توحي بالتهديد أو بالقوة لا تتناسب مع الأسلوب الليّن؛ ولكن لين الكلام لا يعني الابتعاد عن الخط الأصيل في الدعوة للفكرة، بل يعني مواجهة الإنسان بالفكرة بالطريقة التي لا تثير حساسيته وعدوانيته، وذلك بالأسلوب التي جرت عليه هذه الآيات في إثارة المسألة بطريقة اللمحة واللفتة، لا بطريقة المواجهة المباشرة، مما يفسح المجال للمخاطب ألّا يعدّ نفسه معنيا بالمسألة، لأن القضية كانت مطروحة في نطاق العموميات التي لا تسبب الإحراج المباشر لقائلها وسامعها، حتى تصل الفكرة بكل عناصرها الحية، ولكن بشرط أن تتم المعالجة بالأسلوب الذي يجعلها تدخل الفكر والروح والشعور من باب واسع . [٤]

ثم أخذ الطرف الآخر بطرح الأسئلة، فقال: ﴿**فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى**﴾، إذ قدّم التركيب الاستفهامي على التركيب الندائي فبدأ بسؤال موسى وهارون ووجه النداء إلى موسى-عليه السلام- وحده ربما لأنه الأصل في النبوة، وهارون وزيره أو تابعه، ويحتمل أن يحمله مكره وسخريته على استدعاء كلام موسى من دون أخيه. [٥] أو لكون موسى -عليه السلام- محط إنكار فرعون واستهجانه لأنه تربى في قصره، وهذا يضيف إلى الدلالات السابقة التي حواها السؤال دلالة الامتنان

---

[١] المصدر نفسه:١٦/ ١٢٦.

[٢] ينظر :ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم: ابو السعود:٦ /١٩.

[٣] ينظر: تفسير من وحي القرآن : السيد محمد حسين فضل الله : ١١٧/١٥.

[٤] ينظر : تفسير من وحى القرآن: السيد محمد حسين فضل الله:١٥/ ١١٨.

[٥] ينظر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: الزمخشري:٣ /٦٧ .

الممزوجة بالعتاب والتقريع[١]. ودلالة " تأخير المنادى إبراز لكونه آخر ما يسمعه المخاطب، لقد كان من الممكن أن يكتفي فرعون بتوجيه السؤال إلى موسى من دون أن يناديه، لكونهما يتبادلان الحوار وجهاً لوجه، لكنه أردف سؤاله بنداء موسى لتوجيه اللوم والعتاب والإنكار والتوبيخ إليه، أي إن النداء غاية بذاته لا مجرد وسيلة ". [٢]

نلحظ إعراض الطرف الآخر وهو المخاطب عن قول (فمن ربي) إلى قوله : ﴿فَمَنْ رَبُّكُما﴾ في حين توحي دلالة ذلك الى الإعراض وعدم الاعتراف بالربوبية أمام اتباعه ومؤيديه لكي لا يقع ذلك في أسماعهم فيحسبوا أنه متردد في معرفة ربّه، أو أنه اعترف بأنّ له ربّاً، وتولى النبي موسى-عليه السلام - الجواب لأنّه خصّ بالسؤال بسبب النّداء له دون غيره، وأجاب النبي موسى -عليه السلام بإثبات الربوبية للّه لجميع الموجودات جريا على قاعدة الاستدلال بالكلية على الجزئية[٣] ولم يكن الغرض من السؤال الأول الذي طرحه فرعون على موسى وهارون -عليهما السلام - طلب المعرفة أو تحديد ماهية الإله الذي يعبدانه، وإنما كان الهدف منه تساؤلاً ينكر جرأة موسى وهارون وتصريحهما بعبادة إله غيره، وتعد هذه الدعوة جريمة في نظر فرعون؛ لأنه كان يدعي الألوهية ويرغم أتباعه على عبادته، كما امتزج إنكاره بدلالة السخرية والتهكم من دعوة موسى وهارون والاستخفاف بها.[٤]

من ثم يأتي الرد من قبل المحاور بالأدلة الفكرية والعقلية التي تثبت أن هذا الكون له مدبر وخالق فيجيب المحاور عن تساؤل الطرف الآخر إجابة تتجاهل دلالاته العميقة عاداً إياه مفتاح بداية تتكشف فيها الحقائق أمام الناس؛ ليعرفوا حقيقة ربهم وصفاته فقال: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ إنها إجابة إنسان واثق مطمئن النفس هادئ الأعصاب، يقدم في كلامه ويؤخر بمنطق يدرك أهمية كل لفظة وأثرها على نفس المخاطب؛ فلقد قدم الفاعل (ربنا) على فعله (أعطى) ليخص المتقدم بهذا الفعل، وليصارح المخاطب من دون خوف، بعبادته لهذا الإله بإضافة لفظ (رب) إلى ضمير المتكلمين ويقدم المفعول به الثاني (كل شيء) على المفعول الأول (خلقه) لتأكيد نسبة ما وقع عليه الفعل (أعطى) إلى الله وتجريد فرعون من هذا الشيء، فالله أعطى خلقه كل شيء، وفرعون من خلقه فهو معطى وليس معطياً، وعطف الفعل (هدى) على

---

[١] ينظر :لغة الحوار : د. فوز سهيل كامل: ٢٤٤.

[٢] المصدر نفسه : ٢٤٤.

[٣] ينظر : التحرير والتنوير: طاهر بن عاشور:١٦/ ١٢٩.

[٤] ينظر :لغة الحوار : فوز سهيل كامل: ١٧٨ .

الفعل (أعطى) موحياً بالتراخي وذلك باستعمال حرف العطف (ثم) لبيان أن فعل الهداية يأتي بعد فعل العطاء المادي[١]وقد عرف المحاور ربه بأمرين متلازمين: **أولاً:** هو ﴿**الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ**﴾ أي خلق كل شيء على الهيئة اللائقة به التي يستقيم بها وجوده. **ثانياً:** ﴿**ثُمَّ هَدَى**﴾: أي هداه إلى الكمال الذي خُلق لأجله، فالهداية في طول الخلقة، والفقرة الأولى في إشارة إلى التوحيد في الخالقية ولم يكن ذلك مورد إنكار لفرعون، أما الفقرة الثانية: ففيها إشارة إلى التوحيد في الربوبية الخاصة بالله سبحانه فهو خالق كل شيء ورب كل شيء، ولا رب غيره، فما يدّعيه فرعون من أنّه هو الرب الأعلى، إنكار للتوحيد في الربوبية، فصحيفة عالم الإمكان فقيرة بالذات لا تتمتع بشيء من التحصيل والوجود، والعالم بحاجة إلى علّة تامّة تخرجه من العدم إلى الوجود، فالمخرج له لا يكون ممكناً مثله، بل موجود تام قائم بالذات لا يحتاج في وجوده وفعله إلى غيره، ولذلك صار سبحانه الخالق وحده [٢]، وقد أشار الزمخشري فقال" لله درّ هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه، وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف وكان طالباً للحق". [٣]

فقد أثار المحاور بإجابته ذعر فرعون، وهدم صرح ألوهيته، وحبط توقعه، بالحيلولة من دون أن يتم موسى-عليه السلام- إجابته خوفًا من تأثيره في قلوب أتباعه الذين تاقت نفوسهم لمعرفة صفات هذا الإله، عندما لم يجد ما يرد به على حجج وبراهين النبي موسى -عليه السلام- التي تحتكم الى العقل والدليل القطعي والرد المفحم المستند الى الدليل الفكري الذي يصبو إليه كل عاقل فطرح تساؤلا يحول به مجرى الحديث إلى القرون الأولى: فقال :﴿**فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى**﴾[٤]، إذ أراد أن يحاجّه بحال الأُمم الماضية التي لم تؤمن بربّ موسى وهارون، إذ إنّهم – على زعمكما: ﴿**أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى**﴾ في الضلالة والعذاب، فهل يمكن توصيف تلك الأُمم في العصور الخالية بالضلالة، فأجاب النبي موسى -عليه السلام- بقوله: ﴿**قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى**﴾ ويدلّ هذا الجواب على براعته في المناظرة وتبليغ الرسالة، حيث إنّ فرعون صرفه إلى موضوع ها مشي، مع أنّه لم يُبعث إلا إلى الأحياء، ولذلك أجمل الجواب حتى يغلق على فرعون باب النقاش فيه.[٥]

---

(١)ينظر :لغة الحوار : فوز سهيل كامل: ١٧٩ .

(٢) ينظر: منية الطالبين في تفسير القرآن المبين : الشيخ جعفر السبحاني : ١٧/ ١٧٣.

(٣)الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: الزمخشري:٤/٨٦.

(٤) ينظر :لغة الحوار: د. فوز سهيل كامل: ١٧٩ .

(٥) ينظر: منية الطالبين في تفسير القرآن المبين : الشيخ جعفر السبحاني : ١٧/ ١٧٣.

ثم أخذ النبي موسى -عليه السلام- يثير مجموعة من القضايا لتقديم الادلة الكونية على توحيد الله (عز وجل) كإجابته عن تساؤلات فرعون ومن معه قال تعالى: ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى**﴾ فهذه " الجمل الثلاث معترضة في اثناء قصة النبي موسى-عليه السلام- فالجملة الأولى منها مستأنفة ابتدائية على عادة القرآن من تفنّن الأغراض لتجديد نشاط الأذهان، ولا يحتمل أن تكون من كلام موسى -عليه السلام- إذ لا يناسب ذلك تفريع قوله:﴿**فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً**﴾ فقوله:﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مهادا**﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي هو الذي جعل لكم الأرض مهادا، والضمير عائد إلى الربّ المفهوم من﴿**رَبِّي**﴾؛ أي هو ربّ موسى -عليه السلام- " [1] فقوله ﴿**فَأَخْرَجْنَا**﴾ انتقل فيه من لفظ الغيبة الى لفظ المتكلم المطاع، بالإيذان بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره، وتذعن الأجناس المتفاوتة لمشيئة الله عز وجل، ولا يمتنع شيء على إرادته " . [2]

وقد احتج المحاور في هذه الآية الكريمة بثلاث دلائل على التوحيد في الربوبية، فالدليل الاول قوله تعالى: ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً** ﴾ أي جعلها مستقراً للعباد، حيث يستطيعون العيش عليها والقيام بمختلف النشاطات والفعاليات كالسير والحراثة والزراعة او اخذ قسط من الراحة وأما الدليل الثاني فقوله: ﴿**وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً**﴾ أي جعل لكم فيها طرقاً، ووسّطا بين الجبال والاودية، وأمّا الدليل الثالث فقوله: ﴿**وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً**﴾ [3] وهذه الدلائل تشير إلى حصر الخالقية بالله _عز وجل_ وعدم قدرة المخلوق على مثلها وانكاراً لادعاء فرعون بالألوهية والربوبية.

قوله تعالى: ﴿**كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعامَكُمْ**﴾ " حال من ضمير فأخرجنا على إرادة القول أي أخرجنا منها أصناف النبات قائلين كلوا وارعوا أنعامكم أي مُعديها لانتفاعكم بالذات وبالواسطة آذنين في ذلك، وفي قوله: ﴿**إِنَّ فِي ذلِكَ**﴾ إشارة إلى ما ذكر من شئونه تعالى وأفعاله وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبته وبعد منزلته في الكمال والتنكير، وفي قوله تعالى ﴿**لَآياتٍ**﴾ للتفخيم كما وكيفا، أي لآيات كثيرة جليلة واضحة الدلالة على شؤون اللّه تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله

---

[1] التحرير والتنوير: طاهر بن عاشور:١٣١/١٦ .

[2] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: الزمخشري:٨٦-٨٧.

[3] ينظر : منية الطالبين في تفسير القرآن المبين : الشيخ جعفر السبحاني : ١٧/ ١٧٤.

﴿لِأُولِي النُّهى﴾ جمع نهية سمى بها العقل لنهيه عن اتباع الباطل وارتكاب القبائح؛ أي لذوى العقول الناهية عن الأباطيل التي من جملتها ما يدعيه الطاغية فرعون " . [١]

فنجد اجابة موسى -عليه السلام-عن اسئلة فرعون التي اراد بها حرف مسار الدعوة بطرحه تساؤلات مغايرة لدعوة النبي موسى -عليه السلام- فقدم الأدلة القطعية التي تؤيد تحيقق النتيجة المراد ايصالها من قبل المتكلم وهو النبي موسى -عليه السلام- بتوحيد الله عز وجل ونقض دعوى المتلقي (فرعون) ليصل بها إلى حقيقة مفادها إثبات ربوبية الله تعالى للسموات والأرض وأن الحجج التي ذكرت آنفاً قد تترك أثرا في المتلقي بصرف نظره إلى تفعيل عقله فيما حوله من الآيات الكونية لإدراك حقيقة الربوبية.

[١] ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم: ابو السعود:٦/٢٢.